

تأملات معلم في مناهج اللغة العربية

حسان نزال

تصدير

يمكن القول، وبعد عشر سنوات من بدء تطبيق المناهج الفلسطينية، إن مساءلة هذه المناهج من خلال استيضاح نتائجها على الأرض وتلمس حال مخرجاتها، أصبحت أمراً ملحاً، ذلك أن من واجب كل مهتم بالواقع التربوي الفلسطيني أن يسائل هذه المناهج ويرى مدى مطابقتها ما تحقق على أرض الواقع مع ما وضع لهذه المناهج من أهداف، وما صَبَّتْ إليه من تطلعات.

واعتقد أن المعلمين هم أكثر فئة معنية بمساءلة هذه المناهج لكونهم الفاعلين في الميدان الذين يُعَارِكون هذه المناهج ويجهدون في مقاربتها تعليمياً، هذا من جهة، ومن جهة ثانية وهي الأهم من وجهة نظري، فإن المعلمين هم من يحاكمون من قبل المجتمع على أي تقصير أو تراجع يصيب العملية التربوية، إذ أن الغالبية العظمى من الشرائح الاجتماعية لا ترى من عناصر العملية التربوية إلا المعلم الذي يشكل الواجهة الرئيسة لها قبالة المجتمع.

نفوس أبنائنا الطلبة، وزيادة مداركهم، وإضافة معارف جديدة لهم، وتعميق خبراتهم في الحياة، وزيادة محبتهم للغتهم، وتنمية مقدراتهم على تلمس الجمال الفني... الخ. إن هذه الأهداف كانت على الدوام في تصادم مع الواقع المدرسي في مستويين: أولهما موضوعي يتعلق بالمنهاج ككم، وثانيهما فكري اجتماعي ثقافي، يتمثل في غياب الانسجام ما بين الأهداف المعرفية والسلوكية المتضمنة في المناهج من جهة، وما تنتجه من قيم وسلوكيات في الواقع الاجتماعي من جهة أخرى.

■ المناهج في محتواها الكمي

إن كل متعامل مع مناهج اللغة العربية، وبخاصة كتب المطالعة والنصوص في المرحلة المتوسطة يلحظ طول المنهاج من حيث عدد

هذه المقالة هي بمثابة قراءة متواضعة في مناهج اللغة العربية للمرحلة الأساسية المتوسطة، اعتمدت فيها على تجرّبي الشخصية في تعليم اللغة العربية على مدى السنين العشر الماضية، متلمساً ملاحظات واقعية وقارئاً لعينات عشوائية من هؤلاء الطلبة الذين تعاملت معهم، مازجاً ذلك كله بنظرة تأملية في البيئة الاجتماعية الأوسع.

لقد تضمنت المناهج الفلسطينية أهدافاً عامة تمثلت في: بناء مناهج فلسطيني يكون أساساً مهماً لبناء السيادة الوطنية للشعب الفلسطيني، وأساساً لترسيخ القيم الديمقراطية، وأداة تنمية للموارد البشرية المستدامة، لذلك لا بد من مساءلة تلك المناهج من خلال ما تحقق من هذه الأهداف الواسعة.

وفي مضمّار اللغة العربية، هدفت المناهج إلى غرس قيم نبيلة في

النصوص، ما يعني عدم إمكانية تنفيذه في حدود الخطة الممكنة، حتى بعد حذف بعض دروسه، إذ يجد المعلم لزاماً عليه تدريس عشرين نصاً في الصفين الثامن والتاسع كل على حدة، في كل فصل دراسي، وفي ظل هذه الإشكالية أشير مثلاً إلى أنني لم أتمكن، ومنذ بداية تطبيق المنهاج الجديد، من تنفيذه كاملاً ولو لمرة واحدة، الأمر الذي كان يضع المعلم تحت ضغط الوقت وطائلة المساءلة الإدارية، وسوط الامتحانات الموحدة.

أما منهاج العاشر المتضمن ثلاث عشرة وحدة لكل فصل دراسي، فبالكاد يُفصّل له ثوب الخطة على مقاسه، ليكون ثوباً ضيقاً بكل المقاييس، لكنه يستر عورة لم يكن لسترها في الصفوف الأخرى سبيل.

لقد تم قبل سنوات عدة إلغاء حصة دراسية من الصفوف المتوسطة لتصبح ست حصص بعد أن كانت سبع حصص لصالح مقرر آخر دون أن يرافق ذلك اختصار مواز في المقررات، وبالتالي شكل ذلك ضغطاً إضافياً. أما مقررات العلوم اللغوية، فإن عدد دروس كل فصل لهذه الصفوف يساوي أو يفوق عدد الأسابيع الرسمية للفصول، بحيث يتحتم على المعلم إنهاء موضوع في كل أسبوع، وأي تعطيل لسبب أو لآخر يمس الخطة الدراسية ويمس روح التكاملية التي بنيت عليها مناهج العلوم اللغوية في هذه المرحلة.

ارتأى واضعو المناهج بناء إنسان عربي فلسطيني مطلع على نماذج أدبية متنوعة فلسطينية عربية وعالمية، بهدف غرس قيم نبيلة في نفوس أبنائنا الطلبة، وزيادة مداركهم، وإضافة معارف جديدة لهم، وتعميق خبراتهم في الحياة، وزيادة محبتهم للغتهم، وتنمية مقدراتهم على تلمس الجمال الفني . . . الخ.

وبالنظر إلى الكم الذي وُضِعَ أمام الطالب الفلسطيني من حيث المحتوى وعناصره، فقد كلف هذا الطالب أكثر مما يُطيق، أو أكثر مما هو مؤهل ليحتمل، فإلى جانب تكليفه بحفظ معاني مئات المفردات، وتحليل مئات الصور الأدبية، وتبيان دلالاتها، وتكليفه بواجبات مناقشة وحل الأسئلة الكثيرة التي لا سبيل لزمن الخطة لاستيعابها داخل الصف، فإن تلك الخطة لم تستوعب ترسيخ آليات المتابعة أداء الطالب ومدى مقدرته على تدويت ما تعلمه، فقلما تتضمن الخطة الدراسية مثلاً وقتاً لمراجعة معاني المفردات مع الطلبة للتأكد من قدرتهم على تدويت المفردات ومعانيها في جمل ومواضيع مبتكرة ومرتبطة بالتجربة الشخصية للطالب، وقلما يتسع الوقت لتحقيق أهداف وجدانية بعد دراسة النصوص الأدبية، وإن ترك ذلك للتعبير فإن حصة التعبير أكثر الأفرع تعرضاً للظلم في خططنا، فلا نحن نتمكن دائماً من تنفيذها داخل غرفة الصف، ولا نحن نضمن موضوعية تنفيذها من قبل الطلبة في البيت.

إن تحقيق الأهداف التي يسعى إليها منهاج اللغة العربية لا يكون بالكلم بل بالنوع، لذا من الأحرى عمل دراسة مبكرة لحجم المنهاج، ووضع آليات متابعة تضمن أعلى تدويت ممكن للمحتوى الدراسي. ذلك أننا كمعلمين علينا أن نعرف: هل نحن بصدد تعليم مهارات

وإكساب سلوكيات للطلبة أم نحن بصدد تنفيذ منهاج بقده وقديده؟ وشتان ما بين الأمرين، إذ أن إكساب الطلبة -على تباين الفروق الفردية بينهم- مهارات وسلوكيات مناسبة لكل منهم، يتعارض مع متطلب تنفيذ خطة المنهاج كاملة، ما يرجح الكفة لصالح الهرولة لتنفيذ المنهاج بعيداً عن تحقيق ما أشرنا إليه من مهارات وسلوكيات ضرورية للطلاب.

■ المناهج .. وعزلتها عن الواقع

بنظرة ليست عاجلة إلى شرائح الطلبة في كثير من مدارسنا، ومن خلال زيارات المشرفين ومتابعة مهتمين، نجد أن شريحة أمية واسعة تجلس على مقاعد الدراسة تصل إلى الصف العاشر دون أن تستطيع القراءة أو الكتابة، وكثيراً ما يجري تحميل معلم اللغة العربية من قبل المجتمع مسؤولية ذلك. هذا الذي وجد نفسه قبالة أكثر من أربعين طالباً في كل شعبة وخلفه سوط خطة بطارده، وضعف قدرات، وإهمال أسري، الأمر الذي وجد أساساً تربوية تدفع الطالب نحو ترفيع مضمون، بحيث لا تنفذ حتى النسبة المسموح بها للرسوب في معظم مدارسنا. إذن، كيف يتحمل معلمو اللغة العربية المسؤولية وحدهم؟!

إننا الآن في أمس الحاجة لإعادة النظر في العملية التعليمية في فلسطين من جميع جوانبها تربوياً وإدارياً وسياسياً، لأن تراجع العملية التعليمية في فلسطين لا يمكن أن ينظر إليه مدرسياً فقط، لأن العملية التعليمية والمدرسة مرتبطتان بالعملية الثقافية الاجتماعية والسياسية.

لقد قُضمت الأرض الفلسطينية الموعول إقامة دولة فلسطينية عديدة عليها، وما زلنا نلحق طلابنا ضرورة التزامنا بالاتفاقيات الموقعة والاتفاقيات الدولية وقوانين حقوق الإنسان، التي لا تحترم لنا حرمة ولا تلاحق متتهكي إنسانيتنا.

من خلال درس «إعلان قيام دولة فلسطين» في الصف الثامن الأساسي، وأخالي لن أستطيع في العام القادم التوضيح لطلبتني كيفية المواءمة بين مضمون النص وما يسمعه اليوم من موقف إسرائيلي باعتبار حل الدولتين حلاً صيانياً لقضية معقدة، لقد استيبح كل شبر من جغرافيتنا وقصم الجدار والمستوطنات الأرض، ولم نعد قادرين على إقناع طلبتنا بما يتضمنه النص، وهو يرى ويسمع عبر الفضائيات ما يتناقض مع ما يرد في النص عن الاتفاقيات المبرمة والالتزام بالشرعية الدولية وحقوق الإنسان، وإقامة الدولة الفلسطينية وغيرها . . . فهل سيصبر علينا طلبتنا كثيراً؟!

إن طلبتنا يخضعون لتأثيرات متناقضة في الخطاب الموجه لهم ما بين مناهجهم الدراسية التي التزمت باتفاقيات أوسلو غداة تأليفها، وبين الخطاب السياسي المتباين لسياسيينا ووسائل إعلامنا، يتجلى في حالة من اللامبالاة إزاء الدروس التي يتعلمها الطلاب.

إنها أسئلة الهوية والسعي لتحديد المكان والوقوف على معطيات التاريخ وآفاق المستقبل، من حق الطالب في هذه المرحلة أن يعرف

«وداعاً يا مدرسة، سأتخلص من الملل، أنت مملّة، وأنا فرحان لأنّي أريد أن أتخلص من المدرسة . . . وداعاً».

هل مثل هذا النموذج فريد في مدارسنا؟! بالطبع لا، لقد علمت من ذويه أنه فعلاً كان يجمع متعلقاته المدرسية قبل أسابيع من نهاية العام ويحرقها، وكم كان وجهه متهللاً لدى خروجه من آخر امتحان مندفعاً إلى خارج المدرسة بكل ما أوتي من عزيمة. لقد اعتاد منذ سنوات على حمل حقيبة تنوء تحتها أكتافه ثقلاً، واعتاد في كل حصة دراسية تعيين واجب عليه تنفيذه في اليوم التالي أو الذي يليه، وقد يكون عدد الواجبات أكبر من عدد الساعات المتاحة له للدراسة، واعتاد على نوع وحجم العقاب إن هو أهمل واجبه، أو لم يتمكن صباحاً من نقله من أحد زملائه، لذلك كان من حقه أن يكتب ما كتب، وأن يستحق علامة تعبير مرتفعة.

■ المناهج .. ودور المدرسة في بناء الديمقراطية:

ثم ألم تكن قيم التسامح والديمقراطية والتمسك بقيمتنا وعاداتنا من مثل احترام الكبار ومثقي المجتمع ومتعلميه، واحترام الرأي والرأي الآخر، والحفاظ على نظافة البيئة والموضوعية والشفافية وصدق الانتماء والإيمان، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وتقوية روح الانتماء الوطني، بعضاً من أهداف مناهجنا؟ أين نحن بعد عشر سنين من كل هذا؟ هل فشلت مناهجنا أم فشلنا في تطبيقها أم تداخلت معها عوامل كثيرة أقوى منها حدثت من مدى تأثيرها في تحقيق كل ما تقدّم؟

لقد بثتُ اعتقدتُ أن المدرسة الفلسطينية ومناهجها أصبحت أقل قوى البناء تأثيراً في شخصية الفرد الفلسطيني، وأقلها قدرة على غرس قيم الديمقراطية والتسامح، ما دام كل ما هو خارج المدرسة لا يكاتفها في تحقيق هذه الأهداف، بل ويسحقها تحت مطرقة المصالح الفئوية والحزبية، إن كل ما هو خارج المدرسة يجهد في عملية غسل دماغ مبرمجة تمحو كل ما علق في الذاكرة داخل الصف، وتحيل أبناءنا إلى أدوات وقوى تنفيذية لأجندة ليست لهم، ولا نحن من وضعها لكننا -شئنا أم أبينا- نشرف على حسن تطبيقها تحت مسمياتنا الخاصة.

بناء على ما ذكرت سابقاً بخصوص المناهج وآلية تطبيقها والقوانين التربوية المرافقة وعجز المؤسسة التربوية عن النأي بنفسها عن تقلبات السياسة اللاتربوية، بل وتأثرها السريع بكل تغير سياسي، وبالنظر إلى ما يجنح إليه شبابنا من ميل للعنف في بيئاتهم المدرسية مع زملائهم ومعلميهم وأسرهم ومجتمعهم، وجنوح نحو التمسك بالمظاهر على حساب الجوهر، كل ذلك أدى إلى ارتباك في الرؤية، بحيث أصبح الفرد يجيد التنظير ضد الآخر السياسي من أبناء شعبه، ويعجز عن محاججة عدوّه حول حقوقه المشروعة، لأن التعبئة الفكرية والسياسية تغير بوصلتها نحو مخاصمة الآخر الداخلي وليس العدو المركزي.

إن مناهجنا الفلسطينية لم تبني الطالب الذي يتبنى مقولة عمر بن

عن أي وطن نتكلم؟ وعن أية دولة؟ وأين هي فلسطين التي نتحدث عنها؟ وأين هي دولة فلسطين؟ وما الفرق بين مفهومي الوطن والدولة؟ ولماذا هو هنا لاجئ؟ ولماذا يختلف الموقف من حالة اللجوء بين قيادات شعبه السياسية؟ ولماذا لا تعطي المناهج الفلسطينية مسألة اللجوء حقها بشرح مفصل وتاريخ واضح وتكتفي بتناولها في بعدها الإنساني فقط؟ ثم لماذا كل هذا الحديث عن القدس في المناهج بينما تشد الرحلات المدرسية رحالها إلى المنتزهات والملاهي، ولا تشد إلى أقرب نقطة يمكن الوصول إليها من مدينة القدس حتى لو كان الجدار الفاصل عند تخومها؟ أم أننا نريد أن نحقق هدفاً تربوياً بعنوان: «أن يستنكر الطالب . . .» كما تكرر الهدف لمرات عديدة في كتاب «القدس .. الوطن والروح» الذي تم تدريسه العام 2009 لمناسبة القدس عاصمة الثقافة العربية؟

على مستوى المأمول من تمكين لطلبتنا على مستوى المهارات الأساسية من إتقان القراءة والكتابة والتعبير، هل تتحقق مثل هذه الأهداف بالكم أم بالنوع؟! إن الكمّ معيّن لتحقيق مثل هذه الأهداف، وما نتوخاه من رفع أعداد الطلبة المتمكنين الذين فاتهم قطار التمكين في المرحلة السابقة أو إلحاق ضعاف الطلبة بركب زملائهم يصطدم بمعضلة الكم وسيف الخطة، الأمر الذي يزيد عدد الأميين، الذين لا يعرفون ما يدور حولهم، سوى هرولة معلمهم عبر صفحات الكتاب وسعي زملائهم بين واجبات حصته السابقة واللاحقة.

إن المتابع لمعطيات الأمية الكتابية في بعض مدارسنا يصاب بالدهشة، حين يجد أن أكثر من ثلث الطلبة في بعض الصفوف المتوسطة لا يقرأون ولا يكتبون، وبالتالي لا يستفيدون من وجودهم على مقاعد الدراسة.

إننا نواجه نماذج من الطلبة الذين فقدوا كل دافعية للدراسة حتى في ظل إتقانهم المهارات الرئيسة من قراءة وكتابة، تجدهم شاردي الذهن مشتتي التفكير خلال الحصة الدراسية، منشغلين بما هوته نفوسهم خارج الصفوف.

تجربة الطالب (ع. ش) ليست فريدة بين نماذج الطلبة الآخرين الذين ندرسهم، فقلما تمكنتُ خلال العام الدراسي من قراءة خط هذه الطالب، أو تحليل عباراته التي كان يبدأها في أول السطر الأفقي وما أن ينتهي إلى نهاية السطر حتى يكون قد نزل عمودياً ثلاثة أو أربعة أسطر دون أن أتمكن من حل لغزها، لكنني صدمت بخاطره في نهاية العام الدراسي، إذ طلبت من الطلبة كتابة خاطرة بعنوان «اليوم الأخير من الصف التاسع» فوجدته يفيض تعبيراً عن مشاعره تجاه المدرسة والكتب والمعلمين منتظراً آخر يوم من العام الدراسي بفارغ الصبر ليتنم من الكتب بجمعها وإحراقها، ولينفرغ للعب مع أصدقائه.

إن (ع. ش) الذي كتب بخط واضح ومرتب هذه المرة وعلى السطر تماماً سيشعر بالاكنتاب لدى بداية الصف العاشر- كما جاء في خاطرته- لكن ما سيخفف عنه أنه سيدرس للصف العاشر فقط. أما أخته المسكينة- كما كتب- فهي تريد أن تدرس للتوجيهي وتأخذ دروساً، فأنا «حزان عليها». وينتهي خاطرته بالقول:

تصطدم دون تحقيق هدفها بطرائق تدريس تلك النصوص وتناولها سلقاً دون الإحالة لمرجعيات أو توظيف في إبداع جديد، لتصبح بالتالي نصوصاً عابرة تمحي بعد الامتحان ولا تترك لها عظيم أثر.

وبعد، فإن مجرد فتح باب مساءلة المناهج بمختلف موادها بعد عشر سنوات على بداية تطبيقها أمر يبعث على الشعور بالحيوية وإمكانية إدارة حوار تربوي إلى الخروج بنتائج وتوصيات تؤخذ بعين الاعتبار، كما أننا على علم بأن قسم المناهج في وزارة التربية والتعليم يُجري مراجعة خاصة في المرحلتين الأساسية والمتوسطة في بعض المواد، ونحن ننتظر التغييرات المرتقبة في العام المقبل، التي نأمل أن تأخذ بعين الاعتبار ما أشرنا إليه من نقاط، وما يشير إليه أختوتنا وزملاؤنا المعنيون.

حسان نزال
معلم من قباطية



مشهد من مسرحية «نافذة» في مدرسة الأثوذكسي.

الخطاب: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»، ولا مقولة أحد المفكرين الفرنسيين: «أختلف معك في الرأي، لكنني على استعداد أن أموت دفاعاً عن حقلك في أن تقول رأيك»، بل نرى خريجي مدارسنا يعتقدون بالحقيقة الكاملة لمواقفهم، والبطلان الكامل لمواقف الآخرين، ولا شك أن هذا مرده إلى التناقض الشديد بين ما تعلموه وما وجدوه في الواقع وإلى عجزهم عن التأثير ليصبحوا متأثرين لا مؤثرين.

إنه اعتياد التلقين الذي تعودوه في المدارس واستساغوه خارجها لأن كمّ المناهج يجبر المعلم على التلقين ويجعله يرتب مسبقاً مادته ويحضرها أحياناً على ورق جاهز حتى يتسع الوقت لبقية فعاليات الحصة، فالطالب كثيراً ما يأخذ شرح القصيدة مطبوعاً وحل الأسئلة كذلك ويستسلم لحلول المعلم دون أن يتمكن من مناقشته، لضيق الوقت أحياناً وخوفه من الفشل في النقاش أحياناً أخرى.

ثم إن الكم الذي بين أيدينا لا يترك مجالاً لتنمية خيال لدى الطالب، ولا لتبني آلية مستقلة للتعامل مع المناهج، وبخاصة في موضوع توظيفه في التعبير، فقلما نجد من يجنح في خواطره وقصصه التعبيرية إلى الخيال، وما يشارك به طلبتنا من قصص وخواطر في المسابقات الأدبية كثيراً ما تفوز، ما هي في معظمها إلا نقل من الشبكة العنكبوتية أو كتابة مختصين متمكنين من ذوي الطلبة، وأجدنا نعرف ذلك وندفن رؤوسنا في الرمل، حتى أننا نلمس تسابقاً بين المديرين للفوز لتحظى بالتكريم من الوزارة بغض النظر عن صدق وموضوعية ما كتب طلبتها.

كل ذلك أفرز نوعية خريجين اعتادوا الخطأ وذوتوه ليصبح من الصعب عليهم التخلص منه، فمثلاً فوجئ موظف استقبال طلبات التوظيف بطالبة تخاطب مديرة التربية والتعليم بالقول (حضرة مديرة التربية والتعليم) فإن كثيراً من المعلمين يفاجئون ببعض الكتب الرسمية التي تطالبهم مثلاً برصد (كيفية مواجهت الصعوبات التي صادفتهم) والأمر ذاته تجده عند موظف الصحة والداخلية والشرطة والجمارك، وعلى واجهات المحال التجارية وغيرها.

إن ذلك إن دلّ على شيء فإنما يدل على ضعف انتماء أبنائنا للغتهم، وعدم اعتبار إتقانها جزءاً من هويتهم العربية الإسلامية، ذلك أن آباءنا وأجدادنا اعتبروا إتقان اللغة العربية كتابة وقراءة ونحواً وصرفاً متطلباً سابقاً على كل علم آخر، فلا بد للطبيب وأستاذ الرياضيات والفيزيائي ومعلم الرياضة وغيرهم من إتقانها تعبيراً عن هوية لغوية وتعزيزاً لانتماء عربي إسلامي، وما أقبح الحجّة التي يسوقها بقية المعلمين لدى مواجهتهم مسألة لغوية أو إملائية بسيطة وأساسية حين يقولون لسنّا معلمي لغة عربية، راجعوا أستاذ اللغة العربية - إنه عذر أقبح من ذنب.

إن اتفاقنا كفلسطينيين أولاً، وكأمة عربية إسلامية ثانياً، على اعتبار اللغة العربية مقوماً رئيساً من مقومات الوحدة العربية يحتم علينا الدفع باتجاه تبني إتقانها وتقديمها على إتقان أي علم آخر، باعتبار ذلك جزءاً من الهوية الشخصية لأبنائنا وتعبيراً عن صدق انتمائهم. وإن ما تضمنته المناهج من مواد ونصوص تسعى لبناء الهوية الفردية للطالب